الفنان مروان نصار

أن تنجو لتشهد

المتتبع لما دأب الفنان مروان نصار على نشره على صفحته على الفيسبوك من رسومات ولوحات، يستطيع ملاحظة التحولات المتلاحقة التي تطرأ على تجربته الفنية، وعلى موضعته لموقعه كفنان من حيث المنظور والدور، وتجليات ذلك على رؤيته وأسلوبه وأدواته ولغته الفنية.

اتخذت الأعمال المبكرة التي أنتجها نصار في الأشهر الأولى من الحرب منحى تسجيلياً لتفاصيل الحياة وطقوسها التي فرضتها الحرب، وبدت مخطوطات سريعة أقرب إلى أن تكون اسكتشات لأعمال مؤجلة، أو رسومات توضيحية تم التقاطها على عجل وبخطوط قوية وجريئة، في محاولة للقبض على لحظة يود تسجيلها أو بالأحرى تصويرها، سواء أكانت لشهيد، أو لأم ثُكلت بصغيرها، ، أو لشخص يمتطي حماراً أو لمشهد صلاة على شهداء، أو موجة نزوح وغير ذلك. وتشف هذه الأعمال وخطوطها السريعة والحادة عن الضغط الذي تشكله اللحظة على الفنان وتزاحم المشهديات التي يرى بأنها جديرة بالالتقاط أو التسجيل أو التصوير، تحت وطأة اللايقين التي تفرضها الحرب، التي اتخذت منذ البداية سمة الإبادة، على الوجود نفسه، فكل شيء قابل للاختفاء والمحو أو التشظي، والفنان نفسه ليس استثناء.

ولعل رحلة النزوح المتواصل للفنان وعائلته، شأنه بذلك شأن معظم سكان قطاع غزة، هو ما يدفعه دوماً لإعادة موضعة ذاته في عالمه الجديد، كنازح وكفنان، وكفنان نازح، وما يجعله أن يكون منتبهاً لعالم نزوحه الجديد.

وبدا في تلك الأعمال أنه يحاول أن يجد لنفسه دوراً يلعبه في الحرب من جهة كفنان، ويشغله عن رعبها وهواجسها من جهة أخرى، كإنسان أعزل وأب قلق وفي مجتمع وحياة قيد بالإبادة. ثم رويداً رويداً تدخل ضربات الفرشاة على خطوط الفحم، لتبدأ الانزياحات عن تلك الخطوط الحادة ولتمنح الفنان مساحة أكثر لانفعالاته أن تعبر عن نفسها، لكنها تظل ضربات مضبوطة تحت وطأة الرغبة في توثيق الواقع، في عالم حوله لا يكف عن تحوله فيما يبدو عملية تفكيك مستمر، يواجهها إعادة ترتيب ومؤقت لوجود يتخذ تجليات أكثر هشاشة ونقصاناً وتجريداً. وهذا ينطبق على انفعالات الناس وحركاتهم وإشارتهم، بقدر ما ينطبق على المشهد على اتساعه، وإن غصَّ بالنازحين وأغراضهم، أو بالأعداء وآلياتهم وكلابهم، أو بالسجناء وأجسادهم شبه العارية والمرصوفة على الأرض بترتيب يفرضه عنف القاتل ووحشيته.

ففي لوحاته الكثيرة التي لم ينقطع عن انتاجها في صراعه من أجل القبض على عنف الواقع وهشاشته في آن، يتخذ فيها الإنسان بأطواره المختلفة، نازحاً مكسوراً كان، أو صياداً يصارع ضيق البحر ورعبه، أو جريحا، أو شهيداً، أو شاهداً، كبيراً أو صغيرا، مركزية لافته إلى جانب حضور خفيف

للكائنات القليلة، ويظهر الحمار الذي يبدو مسالماً في كل أطوار الحرب وفوضاها وعنفها، كموتيف يواصل حضوره الذي يبدو مدعاة للطمأنينة، ومبعثاً لشيء من الأمان وللتوازن للفنان نفسه، كما يحضر الطائر، عصفور كان أم حمامة، ككائن حميم ومرغوب بخصوره لا يبارح الكثير من تخطيطاته. وفي هذا السياق المتحول، لا يكف الفنان عن تغيير تموضعه في المكان، وبالتالي تغيير منظوره الذي يأخذ أحيانا شكل التحديق القريب في المشهد عن قرب فيما يشبه النظر في عدسة محدبة، وأحياناً القبض عليه من عين الطائر، أو ربما من عدسة طائرة الكوادكابتر المحدقة في ضحاياها وأهدافها الوشيكة، ما يجعل المشهد يبدو هشاً وفي دائرة الاستهداف. وأحياناً يترك الفنان تلك المسافة التي تشفُّ عن شيء من الاسترخاء، وكأنه يجلس على مقعد بهدوء، ويمارس تأملاته في المشهد.

رويداً رويداً يأخذ الزمن يتكثف في أعمال الفنان التي بدورها تنطوي على تكثيف لموضوعاتها التي تغدو أكثر في بؤرة التركيز والاهتمام. وتجلى هذا الأمر في سيطرة لافتة لموضوع البورتريه على انشغاله ووقته، حيث يصبح الوجه نفسه مساحة قابلة للاتساع والتمدد، حتى يصبح نفسه مشهدا حافلاً بالتضاريس اللونية، والانفعالات الهادئة، وفضاءً واسعاً يستطيع الفنان الالتجاء إليه والتلهي به، بما ينطوي عليه ذلك من قدرٍ من التخفف من وطأة العالم الخارجي المتداعي حوله، والانغماس في التجربة التي تتخذ، ظاهرياً، انشغالاً جمالياً، وتختزل داخلها رحلة التحولات السابقة، بما فيها تلك التي طالت روح الفنان التي في مواصلة سعيها إلى الإبقاء على القدر الأكبر الممكن من التوازن والتناغم الداخلي، وقدرة أعمق على التأمل والاستغراق، ربما يكون مصدرها عثوره على معنى وجوده كذات مبدعة يتعدى دورها المراقبة والتصوير، وبالتالي عثوره على تلك الجدوى التي يمنحها الفن لصاحبه، ولا سيما في محيط يعيث فيه العبث الإنساني فساداً في وجود يترنح ما بين غبار المحو وشذرات المعنى.

فبين تلك اللوحة "شاطئ غزة" المنجزة قبل الحرب بضربات لونية محسوبة ونظيفة بما توحي به من صفاء وسلام تعمقه زرقة البحر بأطيافها كخلفيه للشخصين الواقفين أمام قارب أحمر، مروراً بتلك اللوحة التي تصور صيادين في عرض البحر المائج الغاضب، وتلك البورتريهات الملونة، وصولاً إلى آخر لوحة رسمها لشهداء قضوا احتراقاً، تكمن رحلة من التحولات التي لم تكن تجربة الحرب بداية لها، وإن كانت قد سارعت من وتيرتها وجعلتها أكثر كثافة وعمقاً ، حيث وضعت الحرب الممارسة الفنية وجدواها في امتحان مواجهة أمام وطأة الوجود المهدد وهشاشته وعبثيته، ما جعل من مواصلة البحث عن المعنى، وعما هو جوهري في التجربة طريقاً لنجاة الفن من السقوط في اللا جدوى.

كل يوم يفلت الفنان فيه من قبضة الإبادة، لا يكف فيه عن مواصلة فعل شهادته على واقع قيامي وحياة تترنح ما بين ضربات القتل والموت والدمار، والإشارات الأخيرة للمعنى الكامن في فعل النجاة والشهادة.

محمود أبو هشهش | كاتب وشاعر مقيم في رام الله

نشر بتاريخ ٢٤.٦.٢٠٢٥